

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ١: مُقَدِّمَةٌ لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ أ. ر. سي. سبرول

حِينَ أَتَحَدَّثُ إِلَى أَحَدِهِمْ، أَوْ أَلْتَقِي بِأَحَدِهِمْ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، وَيَسْأَلُنِي عَنْ عَمَلِي، أُجِيبُ بِأَنِّي مُعَلِّمٌ بِكَلِمَةِ اللّاهُوتِ. وَأَسْأَلُ دَائِمًا: "مَاذَا تُعَلِّمُ؟" وَحِينَ أُجِيبُ بِأَنِّي أَسْتَاذٌ فِي اللّاهُوتِ النِّظَامِيِّ وَالدِّفَاعِيَّاتِ، أَقَابِلُ عَادَةً بِنظَرَاتِ جَهْلٍ، بَلْ وَكَثِيرًا مَا أَقَابِلُ بِنظَرَاتِ جَهْلٍ مُضَاعَفَةٍ، لِأَنَّ الْعَالِيَّةَ لَا يَدْرُونَ شَيْئًا عَنِ اللّاهُوتِ النِّظَامِيِّ. وَإِنْ اسْتَطَعْتَ شَرَحَ ذَلِكَ لَهُمْ، يَتَحَيَّرُونَ مِنَ الْمَجَالِ الْآخَرِ، أَيِ الدِّفَاعِيَّاتِ، فَيَقُولُونَ: "وَمَا هُوَ عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟"

لِإِدْوَانِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى السَّبُورَةِ، لِأَنَّهَا مَحْوَرُ هَذَا الْمُقَرَّرِ - مَجَالٌ أَوْ عِلْمٌ الدِّفَاعِيَّاتِ. وَهُوَ فِي الْعَالَمِ اللّاهُوتِيِّ يُعْتَبَرُ عَادَةً عِلْمًا مُنْفَصِلًا عَنِ عِلْمِ اللّاهُوتِ أَوْ عَنِ الدِّرَاسَاتِ الْكِتَابِيَّةِ. وَيُعْنَى عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ بِتَقْدِيمِ دِفَاعٍ فِكْرِيٍّ عَنِ تَصْرِيحَاتِ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ. وَفِي هَيْئَةِ لِيْجُونِيرِ، نَقُولُ إِنَّ إِحْدَى مَهَامِنَا هِيَ أَنْ نُسَاعِدَ النَّاسَ لِيَعْرِفُوا مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَسَبَبَ إِيمَانِهِمْ بِهِ. وَلِذَا، فَتَقْدِيمُ الْأَدِلَّةِ عَلَى تَصْرِيحٍ مُعَيَّنٍ، أَيْ عَرْضَ الْبَرَاهِينِ أَوْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَدْعُونَا إِلَى الْإِيمَانِ بِهَذَا الْأَمْرِ دُونَ ذَلِكَ، هُوَ مُهِمَّةٌ عِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ.

مُصْطَلَحُ "الدِّفَاعِيَّاتِ" - apologetics - هُوَ عِلْمٌ تَقْدِيمِ apology. فِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، تَقْدِيمِ apology يَعْنِي أَنْ تَقُولَ: "أَعْتَذِرُ لِأَنِّي أَسَأْتُ إِلَيْكَ أَوْ ارْتَكَبْتُ خَطَأً". لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مَعْنَى الْمُصْطَلَحِ هُنَا. تَأْتِي كَلِمَةُ "apologetics" مِنَ الْكَلِمَةِ الْيُونَانِيَّةِ "apologia"، وَمَعْنَاهَا الْحُرْفِيُّ "تَقْدِيمٌ رَدٌّ أَوْ تَقْدِيمٌ جَوَابٍ".

لِيَصْرِفَ بَعْضُ الْوَقْتِ فِي تَنَاوُلِ النَّصِّ الْكِتَابِيِّ الَّذِي فِيهِ نَلْتَقِي بِمَفْهُومِ الدِّفَاعِيَّاتِ، وَمَسْئُولِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ. إِذَا نَظَرْنَا إِلَى رِسَالَةِ بَطْرُسَ الْأُولَى، الْأَصْحَاحِ الثَّلَاثِ، وَالآيَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ، نَقْرَأُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: "بَلْ قَدَّسُوا الرَّبَّ الْإِلَهَ فِي قُلُوبِكُمْ، مُسْتَعِدِّينَ دَائِمًا لِمُجَاوَبَةِ كُلِّ مَنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيكُمْ بِوَدَاعَةٍ وَخَوْفٍ وَلَكُمْ صَمِيرٌ صَالِحٌ لِكَيْ يَكُونَ الَّذِينَ يَشْتُمُونَ سَيْرَتَكُمْ الصَّالِحَةَ فِي الْمَسِيحِ يُخْزَوْنَ فِي مَا يَقْتَرُونَ عَلَيْكُمْ كِفَاعِي شَرًّا".

الْجَانِبُ الْأَوَّلُ الَّذِي نُوصِي بِأَنْ نُعْنَى بِهِ هُنَا هُوَ أَنْ نَكُونَ قَادِرِينَ - أَوْ مُسْتَعِدِّينَ - لِتَقْدِيمِ دِفَاعٍ أَوْ جَوَابٍ أَوْ "apologia"، أَيْ رَدٍّ عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْأَلُ، أَوْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ نُخْبِرَهُ عَنْ سَبَبِ الرَّجَاءِ الَّذِي فِيْنَا. ثُمَّ يَتَابِعُ قَائِلًا إِنَّهُ فِي النَّهَائِيَّةِ، كُلُّ مَنْ يَفْتَرِي عَلَى حَقِّ الْمَسِيحِيَّةِ سَيُخْزَى، وَهَذَا يَكْشِفُ لَنَا وَاحِدًا مِنَ الْأَهْدَافِ الرَّئِيسِيَّةِ لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ.

لَكِن فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى، الْمَدَافِعُونَ عَنِ الْعَقَائِدِ الْمَسِيحِيَّةِ، فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَحَتَّى الْقَرْنِ الثَّانِي، أَيْ الْمَفَكَّرُونَ الْمَسِيحِيُّونَ لِذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ، كَانَ عَلَيْهِمُ الْإِنْخِرَاطُ فِي عَمَلِ دِفَاعِيٍّ، وَالرَّدُّ عَلَى اتِّهَامَاتٍ كَاذِبَةٍ وَجَّهَتْ ضِدَّ الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ الْوَلِيدِ.

فَمَثَلًا، فِي كِتَابَاتِ يُوَسْتِينُوسَ الشَّهِيدِ، مِثْلَ "الدَّفَاعِ" أَوْ "The Apologia". كَانَ يَرُدُّ عَلَى نُقَادِ الْكَنِيسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ، الَّذِينَ اتَّهَمُوا الْمَسِيحِيَّةَ بَعْدَهُ أُمُورٍ. أَوَّلًا، كَانَ أَحَدُ الْإِتِّهَامَاتِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ هُوَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ الْأَوَائِلَ مُثْبِرُونَ لِلْفِتَنِ، أَيْ أَنَّهُمْ خَوَنَةُ يَضْعُفُونَ مِنْ سُلْطَةِ الدَّوْلَةِ.

فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنَ التَّارِيخِ الرَّومَانِيِّ، كَانَتْ عِبَادَةُ الْإِمْبْرَاطُورِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَكَانَ الْقَسْمُ بِالْوَلَاءِ لِقَيْصَرَ إِرَامِيًّا عَلَى الْمَوَاطِنِينَ الرَّومَانِيِّينَ. فَكَيْ يُثْبِتُوا وِلَاءَهُمْ، كَانَ عَلَيْهِمْ تَرْيِيدُ عِبَارَةٍ "كَإَيَّرَ كِيرْيُوسَ"، أَيْ "الْقَيْصَرَ رَبًّا". لَكِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِوُجُوبِ إِكْرَامِ قَيْصَرَ، كَمَا يُعَلِّمُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ، رَدُّوا قَائِلِينَ، كَمَا قَالَ يُوَسْتِينُوسَ الشَّهِيدُ: "إِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ نَمُودَجٌ لِلطَّاعَةِ الْمَدْنِيَّةِ. فَتَحْنُ لَا نُشْغِلُ شُرْطَةَ رُومَا بِمِلَاحَقَتِنَا أَوْ بِمُحَاوَلَةِ الْقَبْضِ عَلَيْنَا بِتُهْمَةِ السَّرْقَةِ أَوْ الْقَتْلِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. فَإِنَّا نَحَاوُلُ أَنْ نَكُونَ مَوَاطِنِينَ صَالِحِينَ، وَنَلْتَزِمَ بِالْحَدِّ الْأَقْصَى لِلسَّرْعَةِ، وَنُسَدِّدَ الصَّرَائِبَ، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنَّا لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ قَيْصَرَ رَبًّا، لَكِنَّا نَقُولُ فِي الْمَقَابِلِ: 'يَيْسُوسُ هُوَ كِيرْيُوسُ' أَيْ 'يَسُوعُ هُوَ الرَّبُّ'".

فِي التَّارِيخِ الْأَمْرِيكِيِّ الْحَدِيثِ، أَحَدُ الْمُرَشَّحِينَ لِمَنْصِبِ عَضْوِ مَجْلِسِ الْوُزَرَاءِ فِي حُكُومَةِ جُورْجِ بُوْش، وَهُوَ السَّيِّدُ أَشْكَرُوفْت، تَعَرَّضَ لِتَقْدِ لَازِجٍ بِسَبَبِ خُطَابِ أَلْقَاهُ فِي كَلِيَّةِ لَاهُوتِ الْجَنُوبِ، حَيْثُ اقْتَبَسَ كَلَامَ أَحَدِ الْمَسِيحِيِّينَ الْأَوَائِلِ الْمُوَسَّسِينَ لِأَمْرِيكَا، قَائِلًا: "فِي أَمْرِيكَا، لَا مَلِكَ لَنَا سِوَى يَسُوعَ". وَكَمْوَمِنْ، حَاوَلَ السَّيِّدُ أَشْكَرُوفْت الْإِقْرَارَ بِوَلَايَةِ التَّامِّ لِلْمَسِيحِ الْمَلِكِ، مِمَّا أَوْقَعَهُ فِي مَتَاعِبَ جَمَّةٍ.

تِلْكَ هِيَ الْمَشْكَلاَتُ الَّتِي وَاجَهَهَا الْمَسِيحِيُّونَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ، حِينَ قَالُوا: "سَنَحْتَرِّمُ قَوَانِينَ الْبِلَادِ، وَنُسَدِّدُ الصَّرَائِبَ، لَكِنَّا لَنْ نَدْعُوَ قَيْصَرَ رَبًّا". كَمَا رَفَضُوا أَنْ يَدْعُوهُ "سَابَاثُوسَ" أَوْ "أَغُسْطُسَ"، لِأَنَّهُ بِحَسَبِ الْمَنْظُورِ الْمَسِيحِيِّ، اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ يُدْعَى "أَغُسْطُسَ". إِذْنِ، كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الرَّدِّ هُوَ أَنْ يُدْرِكَ الْإِمْبْرَاطُورُ -وَبِالْمُنَاسَبَةِ، كَتَبَ يُوَسْتِينُوسَ الشَّهِيدُ دِفَاعَهُ إِلَى الْإِمْبْرَاطُورِ أَنْطُونِيُوسَ بَايُوسَ، مُحْتَكِمًا إِلَى صِيَّتِهِ وَمَا عَرِفَ عَنْهُ مِنْ إِنْصَافٍ، لِيَكُونَ عَادِلًا فِي حُكْمِهِ عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ، وَلَا يَدِينَهُمْ اسْتِنَادًا إِلَى شَائِعَاتٍ بَاطِلَةٍ.

أَمَّا الْإِتِّهَامُ الْآخِرُ الَّذِي وَجَّهَ إِلَى الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ، فَهُوَ أَنَّهُمْ مُلْحِدُونَ، لِأَنَّ الْمُجْتَمَعِ الْمَسِيحِيِّ رَفَضَ عِبَادَةَ آلِهَةِ مَجْمَعِ الْآلِهَةِ الرَّومَانِيِّينَ. نَتَذَكَّرُ أَنَّهُ فِي حَادِثَةِ اسْتِشْهَادِ بُولِيكَارْيُوسَ، وَهُوَ شَيْخٌ فِي أَوَاخِرِ الثَّمَانِيَّاتِ مِنْ عُمُرِهِ، أَحْضَرُوهُ

إِلَى السَّاحَةِ لِلْمُتَوَلِّينَ أَمَامَ الإِمْبْرَاطُورِ. وَلَمْ يَشَأِ الإِمْبْرَاطُورُ أَنْ يُصَبِّحَ بُولِيكَارُبُوسَ شَهِيدًا، لِأَنَّهُ كَانَ أُسْقَفَ سَمِيرِنَا آنَ ذَاكَ، وَقَدِيدًا مَبْجَلًا، لِأَنَّ الإِمْبْرَاطُورَ أَدْرَكَ أَنَّهُ إِنْ أَعْدَمَ هَذَا الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، سَيُسْبِيءُ ذَلِكَ إِلَى صُورَةِ الحُكُومَةِ. فَحَاوَلَ الإِمْبْرَاطُورُ إِيجَادَ وَسِيلَةٍ لِمُسَاعَدَةِ بُولِيكَارُبُوسَ عَلَى الإِفْلَاتِ مِنْ عُقُوبَةِ الإِعْدَامِ، فَقَالَ لِبُولِيكَارُبُوسَ، الَّذِي كَانَ وَاقِفًا فِي وَسَطِ السَّاحَةِ: "كُلُّ مَا عَلَيْكَ فَعَلُهُ لِنَجْوِ بِحَيَاتِكَ هُوَ أَنْ تَقُولَ: 'سَحَقًا لِلْمُلْحِدِينَ!'، لِأَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ كَانُوا يُحْسَبُونَ مُلْحِدِينَ فِي رُومَا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْإِلَهَةِ الرُّومَانِيَّةِ. وَفِي حِكْمَةِ بُولِيكَارُبُوسَ، قَالَ: 'أَكُلُّ مَا تُرِيدُهُ مِنِّي هُوَ أَنْ أَقُولَ: 'سَحَقًا لِلْمُلْحِدِينَ!'؟" ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْمُدْرَجَاتِ، إِلَى جَمِيعِ الرُّومَانِ، وَقَالَ: 'حَسَنًا، سَحَقًا لِلْمُلْحِدِينَ!' ثُمَّ قَالَ: 'لَسْتُ مُلْحِدًا، بَلْ أَنْتُمْ هُمْ الْمُلْحِدُونَ'. وَبِالطَّبَعِ، لَمْ يَرُقْ ذَلِكَ لِلإِمْبْرَاطُورِ، فَأَمَرَ بِإِعْدَامِ بُولِيكَارُبُوسَ. لَكِنَّ يُوَسْتِينُوسَ الشَّهِيدَ حَاوَلَ الرَّدَّ عَلَى اتِّهَامِ الْمَسِيحِيِّينَ بِأَنَّهُمْ مُلْحِدُونَ، وَقَالَ إِنَّ هَذَا تَشْوِيهُ لِهَوَيْتِنَا. لَسْنَا مُلْحِدِينَ، لَكِنَّا مُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ، وَمُخْلِصُونَ تَمَامًا لِحَقِيقَةِ وُجُودِهِ؛ لَكِنَّا فَقَطْ تَرَفُّضُ تَعَدُّدِ الْإِلَهَةِ.

كَذَلِكَ، كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يُحْسَبُونَ مِنْ آكِلِي لَحُومِ الْبَشَرِ، بِسَبَبِ انْتِشَارِ شَائِعَةٍ فِي رُومَا بِأَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ، غَرِيبِو الْأَطْوَارِ، يَجْتَمِعُونَ فِي مَقَابِرِ تَحْتَ الْأَرْضِ، فِي اجْتِمَاعَاتٍ سِرِّيَّةٍ، لِمُمَارَسَةِ أَكْلِ لَحُومِ الْبَشَرِ، إِذْ دَاعَ الْحُبْرُ بِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ جَسَدَ أَحَدِهِمْ وَيَشْرَبُونَ دَمَهُ. وَكَانَ عَلَى الدِّفَاعِيِّينَ الرَّدُّ عَلَى تِلْكَ الْإِتِّهَامَاتِ، قَائِلِينَ: "هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ نَحْنُ نُمَارِسُ فِي اجْتِمَاعَاتِنَا فَرِيضَةَ عَشَاءِ الرَّبِّ، حَيْثُ يُمَثَّلُ الْحُبْرُ جَسَدَ رَبِّنَا، الَّذِي دُبِحَ لِأَجْلِنَا، إِلَى آخِرِهِ".

إِذْنًا، فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ، مَا كَانَ الدِّفَاعِيُّونَ يَفْعَلُونَهُ هُوَ التَّوَضُّيْحُ وَالرَّدُّ عَلَى الْإِتِّهَامَاتِ الْكَاذِبَةِ الْمُوَجَّهَةِ إِلَى الْكَنِيسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ. وَلَمْ تَنْتَهَ، يَا أَحِبَّائِي، مُهِمَّةُ الرَّدِّ عَلَى التَّحْرِيقاتِ وَالْمَفَاهِيمِ الخاطئةِ عَنِ طَبِيعَةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ أَوْ الثَّانِي، بَلْ هَذِهِ مُهِمَّةٌ عَلَى الدِّفَاعِيِّ تَأْدِيتُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ، لِأَنَّهُ حَيْثُمَا تَزْدَهَرُ الْمَسِيحِيَّةُ، تَتَعَرَّضُ لِلتَّشْوِيهِ وَالتَّحْرِيْفِ، وَيَتَّهَمُ حُصُومُهَا الْمَسِيحِيِّينَ وَالْكَنِيسَةَ بِشَتَّى الْإِتِّهَامَاتِ. وَهَكَذَا، افْتَضَّتْ مُهِمَّةُ الدِّفَاعِيِّ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ اتِّخَاذَ مَوْقِفٍ دِفَاعِيٍّ لِصَدِّ الْإِتِّهَامَاتِ الْبَاطِلَةِ.

لَكِنِ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ، نَتَذَكَّرُ أَيْضًا الصِّرَاعَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي دَارَ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى حَوْلَ الْمِصْدَاقِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ لِلْمَسِيحِيَّةِ. ظَهَرَتِ الْمَسِيحِيَّةُ فِي فِتْرَةٍ فِيهَا كَانَتِ الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ، الَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً عَلَى الْعَالَمِ الْفِكْرِيِّ قَدِيمًا، فِي تَدَهُورٍ شَدِيدٍ. وَفِي الْوَاقِعِ، يَقُولُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ إِنَّ الخِصَارَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَنْقَذَتْ مِنَ الْفَسَادِ وَالانْحِلَالِ الدَّاخِلِيِّ لِلإِمْبْرَاطُورِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ، عِنْدَمَا غَزَتْهَا رُومَا؛ وَإِنَّ تِلْكَ الخِصَارَةَ تَعَاثَفَتْ بِفَضْلِ فِلْسَفَةٍ جَدِيدَةٍ لِلْحَيَاةِ، وَأَخْلَاقِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ، جَسَدَهَا يَسُوعُ وَرُسُلُهُ، وَلَا سِيمَا الرُّسُولُ بُولُسُ، بِحَيْثُ صَارَتْ هُنَاكَ لَيْسَ فَقَطْ دِيَانَةً جَدِيدَةً، بَلْ أَيْضًا فِلْسَفَةً جَدِيدَةً، حَلَّتْ مَحَلَّ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، أَوْ الْأَرِسْطِيَّةِ، أَوْ الرُّوَاقِيَّةِ، أَوْ الْأَبِيْقُورِيَّةِ، أَوْ الْأَنْظَمَةِ الْفِلْسُفِيَّةِ الْآخَرَى الَّتِي تُنَافِسُ الْمَسِيحِيَّةَ عَلَى وِلَايَةِ الْبَشَرِ.

وَفِي الْوَاقِعِ، نَرَى لَمَحَةً عَنِ ذَلِكَ عَلَى صَفَحَاتِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، حِينَ زَارَ بُولُسُ أَثِينَا، الَّتِي كَانَتْ الْمَرْكَزَ الثَّقَافِيَّ لِلْعَالَمِ الْقَدِيمِ. وَفِيهَا أَسَّسَ أَفْلَاطُونُ أَكَادِيمِيَّتَهُ، وَأَسَّسَ أَرِسْطُو لَيْسِيُومَ، وَازْدَهَرَتِ الْفَلَسَفَةُ الْيُونَانِيَّةُ وَالْحَضَارَةُ الْيُونَانِيَّةُ. وَتَذَكُرُونَ أَنَّهُ حِينَ جَاءَ بُولُسُ أَخِيرًا إِلَى أَثِينَا، رَأَى الْمَدِينَةَ، وَنَفَرَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنَّ رُوحَهُ اخْتَدَّتْ فِيهِ، لِأَنَّهُ رَأَى الْمَدِينَةَ بِأَكْمَلِهَا مُسَلَّمَةً لِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ التَّصَوُّرُ الْمُعْتَادُ. فَالتَّصَوُّرُ الْمُعْتَادُ لِلسَّبَاحِ وَالرُّؤَاةِ هُوَ أَنَّ أَثِينَا تَتَرَبَّعُ عَلَى قِمَّةِ أَعْظَمِ حَضَارَةٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، وَأَنَّ جَوْهَرَ عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ مُتَجَسَّدٌ فِي أَثِينَا. رَأَى بُولُسُ أَنَّ أَثِينَا مُسَلَّمَةً بِالْكَامِلِ لِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَرِيُوسَ بَاغُوسَ. تَذَكُرُونَ أَنَّ إِلَهَ الْحَرْبِ فِي الْأَسَاطِيرِ الْيُونَانِيَّةِ كَانَ مَعْرُوفًا بِاسْمِ "أَرِيَس"، وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْأَسَاطِيرِ الرُّومَانِيَّةِ هُوَ "مَارَس" أَوْ "الْمَرِيخُ". وَلِهَذَا نَفَرَ فِي سَفَرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ أَنَّ بُولُسَ زَارَ "أَرِيُوسَ بَاغُوسَ" نِسْبَةً إِلَى الْإِلَهِ أَرِيَسَ.

عَلَى أَيِّ حَالٍ، كَانَتْ هُنَاكَ تَلَّةٌ عَلَيْهَا هَيْكَلٌ لِإِلَهِ الْحَرْبِ. وَذَهَبَ بُولُسُ إِلَى هُنَاكَ لِيَكْرَزَ بِالْمَسِيحِيَّةِ، مُؤَدِّيًا وَظِيْفَةَ الدِّفَاعِيِّ وَسَطَ تِلْكَ الْحَضَارَةِ الْفِكْرِيَّةِ. وَهُنَاكَ، التَّقَى بِفَلَسَفَةٍ مِنَ الْمُدْرَسَتَيْنِ الرَّوَاقِيَّةِ وَالْأَبِيْفُورِيَّةِ. وَبِالْمُنَاسَبَةِ، هَاتَانِ هُمَا مُدْرَسَتَا الْفَلَسَفَةِ الْوَحِيدَتَانِ الْمَذْكُورَتَانِ صَرَاحَةً فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. ثُمَّ خَاصَ الرُّسُولُ بُولُسُ جَدَلًا فِي الدِّفَاعِيَّاتِ، فِي السَّاحَةِ الْعَامَّةِ، مَعَ مُمَثِّلِي الْفَلَسَفَاتِ الْأُخْرَى، وَلَا سِيَّمَا الرَّوَاقِيَّةِ وَالْأَبِيْفُورِيَّةِ. وَسَنَتَطَرَّقُ لَاحِقًا إِلَى الدِّرَاسَةِ الْمُثِيرَةِ لِلَاَهْتِمَامِ لِلْكَيفِيَّةِ الَّتِي تَعَامَلُ بِهَا بُولُسُ مَعَ الْفَلَسَفَةِ الْوَثْنِيَّةِ. لَكِنَّ تُمَثِّلُ تِلْكَ الْحَادِثَةَ الْبَسِيطَةَ مَا كَانَتْ الْكَنِيسَةُ تُوَاجِهُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى - أَيَّ تَصَادُمَهَا الْمُبَاشِرَ مَعَ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْأُخْرَى. وَبِالتَّالِي، كَانَتْ الْكَنِيسَةُ الْمَسِيحِيَّةُ مَدْعُوَّةً لِلْمُجَاوَبَةِ أَوْ الرَّدِّ عَلَى الْاِعْتِرَاضَاتِ الْمُثَارَةِ ضِدَّ الْكَنِيسَةِ مِنْ مُؤَيِّدِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ.

مُجَدِّدًا، إِنْ دَرَسْتُمْ كِتَابَاتِ أَثِينَاغُورَاسَ، وَكِتَابَاتِ يُوَسْتِينُوسَ الشَّهِيدِ، سَيَلْفُتُ شَيْءٌ انْتِبَاهَكُمْ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنَ الْعَنَاصِرِ الرَّئِيسِيَّةِ لِمُبَارَزَتِهِمْ ضِدَّ الْفَلَسَفَةِ الْوَثْنِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ هُوَ اخْتِكَامُهُمْ إِلَى "اللُّوجُوسِ"، أَيَّ كَلِمَةِ اللَّهِ، الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ يُوحَنَّا فِي الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِهِ. تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حِينَ قَدَّمَ يُوحَنَّا رِوَايَتَهُ عَنِ حَيَاةِ الْمَسِيحِ، أَيَّ إِنْجِيلِهِ، اسْتَهْلَلَ حَدِيثَهُ بِالْكَلِمَاتِ: "فِي الْبَدءِ كَانَ الْكَلِمَةُ" - أَيَّ "اللُّوجُوسِ" - "وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ". أَلَيْسَ هَذَا لَافِتًا؟ فِي أَوَّلِ جُمْلَةٍ، مَيَّزَ يُوحَنَّا بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَاللَّهِ، قَائِلًا إِنَّ الْكَلِمَةَ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ. ثُمَّ فِي الْجُمْلَةِ التَّالِيَّةِ، طَابَقَ بَيْنَ الْكَلِمَةِ وَاللَّهِ قَائِلًا: "وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ". ثُمَّ تَابَعَ قَائِلًا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ بِالْكَلِمَةِ، وَبَعِيرِ الْكَلِمَةِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. يَتَّفِقُ ذَلِكَ مَعَ الْجَوَابِ الْأُخْرَى مِنْ عَقِيدَةِ الْمَسِيحِ الَّتِي نَجَدُهَا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، الَّتِي تَقُولُ إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الَّذِي مِنْهُ، وَفِيهِ، وَلَهُ كُلُّ الْأَشْيَاءِ.

رَبِّمَا لَا يُبَيِّرُ هَذَا التَّوَعُّدَ مِنَ التَّصَرُّيَّاتِ حَمَاسَنَا، لَكِنَّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَيْلَسُوفِ الْيُونَانِيِّ، كَانَ ذَلِكَ صَادِمًا، لِأَنَّهُ فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ، لَمْ تَكُنْ كَلِمَةُ "لُوجُوس" هِيَ اللَّفْظُ الْمُعْتَادُ الَّذِي يَعْنِي "الكَلِمَةُ"، بَلْ كَانَ مَفْهُومًا مُفَعَّمًا بِالْمَحْتَوَى الْفَلْسَافِيِّ. فَمَثَلًا، فِي فِلْسَفَةِ هِرَقْلِيطَس، وَفِي الْفِلْسَفَةِ الرَّوَاقِيَّةِ الْلاحِقَةِ، كَانَ "اللُوجُوس" يُعْتَبَرُ الْقُوَّةَ الْأَسْمَى فِي الْكُونِ، الَّتِي رَتَّبَتْ وَصَبَطَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكُونِ. وَأَهْمُ سُؤَالٍ حَاوَلَ الْفِلَاسِفَةُ الْيُونَانِيُّونَ الْإِجَابَةَ عَنْهُ يَتَعَلَّقُ بِمَا نُسَمِّيهِ مَسْأَلَةَ الْوَحْدَةِ وَالتَّنَوُّعِ، أَوِ الْوَاحِدِ وَالكَثِيرِ. فَعِنْدَمَا نَتَطَلَّعُ مِنَ التَّافِذَةِ، نَرَى طُبُورًا، وَعُشْبًا، وَأَعْمِدَةً هَاتِفٍ، وَسَيَّارَاتٍ، وَبَشَرًا - وَكُلَّ الْمَظَاهِرِ الْمُتَنَوِّعَةِ الْأُخْرَى لِلْعَالَمِ الْمُحِيطِ بِنَا. وَنَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ وَنَقُولُ: "كَيْفَ يَكُونُ لِكُلِّ ذَلِكَ مَعْنَى؟ هَلْ نَرَى أَنَّ الطَّبِيعَةَ وَالْحَيَاةَ مُجْرَدُ قَوْصَى، أَمْ كُنْتَلِ عَيْرٍ مُتْرَابِطَةٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ عَدِيمَةِ الْمَعْنَى وَعَيْرِ الْمُتَّصِلَةِ، أَمْ هُنَاكَ مَا يَجْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ مَفْهُومًا؟"

كَارُلْ سَاجَانُ، حِينَ عَرَضَ بَرْنَايُجُهُ عَلَى التِّلْفَازِ، ثُمَّ صَدَرَ كِتَابُهُ لِاحِقًا، كَانَ بَرْنَايُجُهُ بِعُنْوَانِ "كُورْمُوس". وَفِي الْبِدَايَةِ، مَيَّزَ بَيْنَ الْكُورْمُوسِ وَالْفَوْصَى. وَمَعْنَى "كُورْمُوس" فِي الْفِكْرِ الْيُونَانِيِّ هُوَ أَنَّ الْعَالَمَ فِي الْأَسَاسِ مُنْتَظَمٌ، يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ، وَأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ، وَذُو مَعْنَى. لَكِنَّ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مَبْدَأٍ أَوْ قُوَّةٍ عَامَّةٍ تُضْفِي وَحْدَةً عَلَى التَّنَوُّعِ، وَتَجْعَلُ الْعَالَمَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ كَوْنًا مُتَّحِدًا، وَلَيْسَ مُفَكَّكًا، حَتَّى يُمَكِّنَ مَعْرِفَتَهُ. وَفِي الْفِلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، كَانَ مَفْهُومُ الْوَحْدَةِ وَالتَّرْتِيبِ وَالتَّنَاعُمِ يُدْعَى "اللُوجُوس".

إِنَّهُ لِحَظًا فَادِحٌ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوَحَنَّا، وَنَقُولَ إِنَّ مَا فَعَلَهُ يُوَحَنَّا هُوَ الْاسْتِعَانَةُ بِمَفْهُومِ الْفِلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ عَنِ "اللُوجُوس"، وَالصَّاقَةُ بِالْهَوْتِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، دُونَ إِحْدَاثِ أَيِّ تَغْيِيرٍ عَلَيْهِ. لَكِنَّ يُوَحَنَّا مَلَأَهُ بِمَحْتَوَى عِبْرَانِيٍّ مُسْتَمَدٍّ مِنْ تَشْخِيسِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَعَيْرِ ذَلِكَ. لَكِنَّ نَمَّةَ أَوْجُهُ شَبَهُ، وَقَوَاسِمُ مُشْتَرَكَةٌ، اسْتَعْلَاهَا الدِّفَاعِيُّونَ الْأَوَائِلُ؛ فَقَالُوا: "أَنْتَقُولُونَ إِنَّكُمْ مُهْتَمُونَ بِاللُوجُوسِ؟ نَحْنُ أَيْضًا مُهْتَمُونَ بِهِ. وَنُخْبِرُكُمْ بِأَنَّ مَا يُضْفِي تَرْتِيبًا وَتَّنَاعُمًا عَلَى الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ بِأَكْمَلِهِ، وَمَا عَبَّرَ عَنْهُ أَفْلَاطُونُ فِي فِلْسَفَتِهِ الْمِيْتَاْفِيزِيْقِيَّةِ، وَمَا حَاوَلَ أَرِسْطُو إِدْرَاكَهُ فِي بَحْثِهِ الْفَلْسَافِيِّ، هُوَ سِرُّ اللُوجُوسِ الْإِلَهِيِّ، أَيْ ذَلِكَ الَّذِي يَخْلُقُ تَرْتِيبًا، وَمَعْنَى، وَتَّنَاعُمًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ".

أَشَارَ أَحَدُ أَسَاتِذَةِ الدِّفَاعِيَّاتِ إِلَى إِمْكَانِيَّةِ تَرْجَمَةِ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ إِنْجِيلِ يُوَحَنَّا كَالْتَّالِي: "فِي الْبَدءِ كَانَ الْمَنْطِقُ، وَالْمَنْطِقُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْمَنْطِقُ هُوَ اللَّهُ. وَالْمَنْطِقُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا". وَقَطْعًا، الْفَرْقُ بَيْنَ لُوجُوسِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ وَلُوجُوسِ الْفِلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ هُوَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَنْطِقَ لَيْسَ قُوَّةً غَيْرَ عَاقِلَةٍ - كَمَا يُقَالُ "لِتَصْحَبَكَ الْقُوَّةُ"، بَلْ مَا كَانَ جَهَالَةً لِلْيُونَانِيِّينَ، وَأَعَمَّقَ مِنْ إِدْرَاكِ مُفَكَّرِي ذَلِكَ الْعَصْرِ، هُوَ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي هُوَ مَنْطِقُ كُلِّ الْكُونِ هُوَ شَخْصٌ أَرْزَلِيٌّ، لَهُ عَقْلٌ، وَإِرَادَةٌ، وَهَوِيَّةٌ شَخْصِيَّةٌ. وَهَذَا هُوَ الْإِسْهَامُ الَّذِي قَدَّمَهُ الدِّفَاعِيُّونَ الْمَسِيحِيُّونَ الْقُدَامَى وَالْأَوَائِلُ فِي الْعَالَمِ الْيُونَانِيِّ. وَسَنَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ وَمَثِيلَاتِهَا فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ.

الدكتور أ. سي. سبزل هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College) وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهسني الألم".